البنـــاء
السنة السادسة / الخميس / 31 تموز 2014 / العدد 1547
Sixth year / Thursday / 31 July 2014 / Issue No. 1547

سرديّات تاريخيّة

الفنان القوميّ بهيج فهد العنداري... الخطّ لديه شعر ونحت وموسيقى

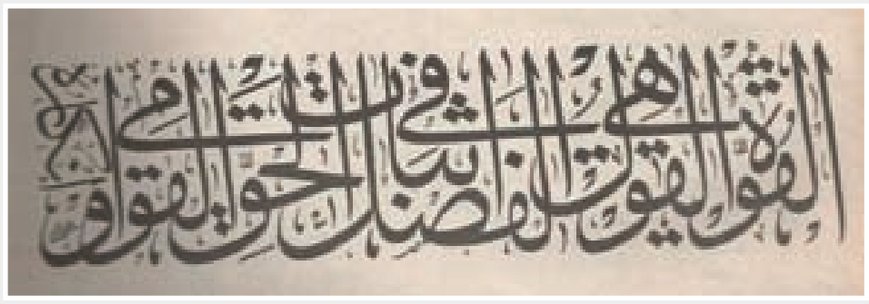

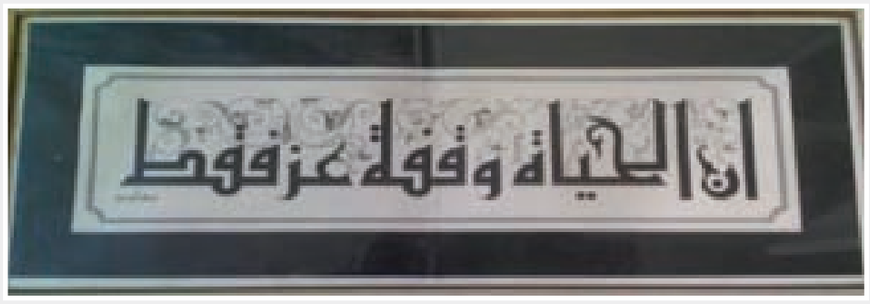

لبيب ناصيف*

كلّما نظرت الى اللوحة بخط يد الرفيق الفنان بهيج العنداري، حاملة كلمة سعاده، وهي تزين أي مكان وجدت فيه في مركز الحزب، أنقلها معي من مكتب الى آخر وتعود بي الذاكرة الى الستينات عندما تعرفت الى الرفيق بهيج، ثم مطلع السبعينات عندما توليت إدارة جريدة «البناء»، وكان الرفيق بهيج خطاط الجريدة، ثم أيضاً عندما اقترن من الرفيقة أمال الطرزي، شقيقة الأمين عبد المسيح والرفيق حنا والمواطن الغيور سعيد، فالتصقنا بالمودة أكثر وبات الرفيق بهيج العنداري، ابن العبادية، ابناً لحي المصيطبة ملتحماً قومياً اجتماعياً برفيقة من غير طائفته ومشكلاً معها، لمحيطه ولمحيطها، قدوة في الحياة الواحدة هيهات أن تحصل خارج الحزب السوري القومي الاجتماعي إلاّ لماما. ومثل عشرات الألوف من أبناء لبنان، دفعت الحرب المجنونة الرفيق بهيج العنداري إلى مغادرة وطنه الى لندن، فهو، كخطاط معروف، تقصده الصحف والمجلات وراغبو تزيين منازلهم ومكاتبهم بلوحات تحمل آيات وكلمات، بمختلف أنواع الخط العربي.

وتلقفته جريدة «الحياة» ومؤسسات إعلامية أخرى، واستقر مرغماً في بلد ما كان يحلم يوماً أنه سيبقى فيه ويفنى.

* * *

لعلّ ما كتبه الرفيق الإعلامي غسان الشامي في العدد 26 تاريخ 2000/6/10 في «البناء» يعبّر عما نشعر به نحن رفقاء وأصدقاء الرفيق الرائع بهيج العنداري الذين، لو كتب كل منهم، لما توقفوا.

«بهيج العنداري، سحابة حروف جميلة». تحت هذا العنوان كتب الرفيق غسان الشامي: ما قدرت على رؤيته عندما جاء الى لبنان مؤخراً، ولم تلحّ علي زهرة حمود، لا لأنني غير مشتاق إلى التندم معه، أو أنني لم أحنّ الى جلسة في مكان هادىء في شارع الحمراء، أو حتى أنني أخشى رؤية مريض. لا، لكن حدساً وتياراً جوّانياً كان يدفعني إلى الاحتفاظ ببهيج العنداري داخل برواز طيفي – أحبّه. هناك على مصطبته الخاصة التي تضجّ بالبسمة والعطاء، وفي فضاء جَلجلة ضحكات الفرح الطفولي ترنّ عقب كل دعابة أرسلها.

لقد كان بهيج يانعاً مثل عينيه اللتين سرحتا ذات جلسة على حافة «شوار الجريد» فوق بسكنتا. عينان حالمتان، صافيتان، لاأثر لأي موت فيهما.

لكنه لم يمهلني كي أتضاحك معه، ولم يشفَ ويعود رافعاً نخب بلاد جاءت إلى انتصارها، وعلى الأصح، خذلني ورحل، كما خذل كل المحبين، مع أنه لم يفعل ذلك طيلة حياته. خذلني ورحل، غادر مسرعاً ولم يلتفت الى أمنياتي وطلباتي المتلاحقة له بالشفاء، غاب دون أن يترك لنا وقتاً لنتحسس اختياره السريع للمفترق... الموحش.

صعب أن تكتب عمن تحبهم، يا لهذه الطامة القاتلة، أو يا لهذا «الواجب» الذي يقتلني، لأن الكلمات مهما تعمشقت وتطاولت تبدو أقل من قاماتهم، وتصير اللغة مجرد قاموس بارد مرمي في زاوية المكتبة، وتنحسر المفردة كما الزبد أمام عصف الروح، وموج المشاعر الهفهافة، والأكثر دفئاً، وتحب وقتها أن تتناولهم همساً، وتلتقطهم عطراً، حيث تمدُّ الروح أذرعها الهيولية لتلتف كحرير الصباح حول ابتساماتهم وأحزانهم وصراخهم وخطاياهم الصغيرة، وحيث تربت بجفونها على كلماتهم وحروفهم، وتسبح في بحرها الصغير والأليف، ولذلك تبدو المسافة المطلوبة كي تكتب عنهم قصيّة، نائية نأي الوشوشة عن الأذن، وخصل الشعر عن الجبين، فتحار في انتقاء الكلمات، وما عليك إلا أن تترك القلم يسيل.

العنداري بهيج رحل إذن، هرول الى هناك متأبطاً دواته وريشته، أصابعه ودبكة الحروف الجميلة، حاملاً معه معاناته للكمبيوتر، وخصامه مع الآلة الحديثة، وتحديها حتى اختراع خطوط جديدة تبقي الخط العربي فاتناً في عيون القراء، مشى العنداري تاركاً سحابة من حروف فاتنة.

ما من أحد مرّ في قطار «البناء» إلاّ ويعرف أن خطوط العنداري قد زينت صفحاتها، وأن بهيج كان واحداً من النبلاء الضاحكين، الكرماء... رغم كل الصعاب، وقد انتقلت ضحكاته الى لندن حيث لم يستطع الضباب طمس طيبته، ولا أن تصل البرودة الى حرارة مشاعره وحفاوته وانتمائه الى نهضته، كما لم يستطع الغرب المادي تخفيف حدّة كرمه...

في لندن، كما في بيروت، ما مرّ أحد من الرفقاء إلاّ وعرّج على «مضافة العنداري». وما احتاج رفيق الى مال أو توصية أو كتاب إلا وكان بهيج حاضراً... حتى المعاناة، التي قاسمته «أمال» كل خطواتها.

غادر بهيج ريشته واختار المفترق الموحش.. هناك في لندن حيث اجتمع الأصدقاء الطيبون الذين ما نسوا روحه وحفاوته وإبداعه.

رحل العنداري... ولم أره، لأنني كنت لا أصدق أنه سيمضي باكراً على سحابة حروفه، أو... ربما لأنني كنت غير جدير برؤيته.

رحل العنداري، وها إنني أعتذر منه، لأنني لم أره أولاً، ولأن كلماتي لا تطال أنامله المبدعة».

* * *

أجرت مجلة «صباح الخير – البناء» مقابلة مع الرفيق بهيج العنداري نشرتها في عددها بتاريخ 17/10/1981 تحدث فيها عن جمالية التشكيل الفني للحرف والخط العربي. ننقل هنا أبرز ما ورد في المجلة لمزيد من الإضاءة على تميّز الرفيق بهيج، مثل والده الفنان فهد العنداري، في صناعة الخط العربي.

تطور الخط العربي بشكل ملحوظ وأصبح يشكل مادة فنية غنية بالتشكيل الجمالي. وأصبح بالتالي لكل فنان، خطاط، حرية الإبداع والتفنن في تطوير الخط العربي ضمن القواعد الأساسية والفنية لجمالية الحرف.

هذه الجمالية الفنية للحرف والخط العربي، حدثنا عنها الفنان والخطاط بهيج العنداري الذي عاش وترعرع مع تشكيل الحرف من خلال والده الفنان حامل لقب خطاط الجمهورية اللبنانية المرحوم فهد العنداري، الذي أعطى للحرف العربي أبعاداً جمالية تشكيلية، فهو الذي كتب على حبة السمسم أربعة أبيات من الشعر للإمام الشافعي، والذي أجاد كل أنواع الخطوط العربية (السلس، النسخ، الأسلوب الفارسي أو ما يسمى بالمشق، الكوفي، الرقعي، الديواني والهمايوني) والتي يجيدها كلها باتقان وبأسلوب رائع جميل. ومع أنه لم يترك لوحات أثرية لضيق الوقت ربما، لكنه ترك بعض الأثر في تشكيل الحرف العربي وتكوين جمالياته.

في هذا الجو الفني للخط العربي، نشأ الفنان والخطاط بهيج العنداري وحدثنا عن والده وعن رحلته مع الحرف قائلاً:

كان لوالدي بالإضافة لولعه بالخط العربي حبه للموسيقى والرسم، فقد درس الرسم على يد الفنان حبيب سرور سنة 1925، ثم اتجه الى تعلم الخط على يد الخطاط المشهور الشيخ نسيب مكارم. ومن أعماله أنه كان خبيراً في كتابة الخطوط في المحاكم اللبنانية.

بخط الرفيق بهيج (القوة هي القول الفصل في إثبات الحق القومي أو إنكاره)

في هذا الجو تتلمذت على يده وبدأت مزاولة هذا الفن تقريباً في أوائل الستينات، وخضت رحلتي في عالم الحرف والخط العربي الجميل في عدة صحف ومجلات، بدأتها مع جريدة الحزب السوري القومي الاجتماعي «البناء»، واكتسبت الكثير لقيمة الفن، من خلال مفهوم النهضة السورية القومية الاجتماعية ونظرتها الشمولية إلى الفن والكون والجمال.

ثم عملت في مجلة «الديار» الى جانب «البناء» خلال الحوادث اللبنانية، ثم سافرت الى لندن للبحث عن كيفية صناعة الخطوط العربية الجاهزة. فصممت مجموعة حروف، أحد الحروف استعمل في مجلة «المجلة» الذي يعطي الشكل الجمالي للصفحة مع المحافظة على جمالية الحرف العربي، في تغطية المساحة المطلوبة في «الماكيت» الجديد. هذا الحرف يبقى محافظاً على روحيته وجماليته، ويعتبر الأقرب الى الحروف العربية، المستعملة في الجرائد والمجلات، وهناك عدة حروف مصممة لم تستعمل بعد. وفي لندن اشتغلت في مجلة «الحوادث» وفي مجلة «المجلة».

بالنسبة إلى جمالية الحرف العربي قال الفنان العنداري: «إن جمالية الحرف العربي تكمن في أن له أسساً وخصائص، مثلاً: حرف «الألف» له ارتفاع يوازي حرف الـ «الجيم» وأحجام الأحرف قريبة من بعضها، ومن بعض الأحرف نستطيع تشكيل الأحرف الأبجدية كلها. فحرف الياء بالخط الفارسي هو نفسه حرف النون والعين والجيم وكأس السين والصاد. وبالنسبة إلى الذين كتبوا الحرف العربي، بعضهم ابتعد كثيراً عن قواعد وأسس جمالية الحرف العربي، وأعطوه أبعاداً بحسب مزاجيتهم، أضافوا الى اللوحات بعض الألوان، فاعتبروها لوحة فنية، فلم يعطوا الحرف العربي قيمته الفنية الجمالية، كقاعدة تدرس. بالإضافة الى أنهم أساؤوا إليه، فحوّلوا الحرف من عمل فني له أصول وقواعد الى عمل تجاري له متطلبات. بحسب الآلة الغربية يأتي القالب الغربي، ونركب عليه الحرف العربي متناسين 1400 سنة من تاريخ وتطور وجمالية هذا الحرف،

الذي له رونق وتشكيل جمالي غير موجود في غيره من الحروف.

وقال ختاماً: هناك خطاطون أعطوا الحرف قيمته، بينهم محمود البرجاوي، البابا، محسن الفتوني، برهان كباره وآسف إذا غاب الآن عن فكري أحدهم... إنهم أعطوا وأبدعوا مع الخط العربي، فقيمة الحرف العربي تكمن في كتابته باليد ليأخذ شكله الجمالي الفني التاريخي.

* * *

نشكر الرفيقة أمال طرزي العنداري التي زوّدتنا بهذه النبذة التعريفية الجيدة عن الرفيق بهيج:

ولد بهيج عنداري في قرية العبادية (قضاء بعبدا) في 11 حزيران 1948.

درس فن الخط العربي على يد والده فهد العنداري. وفي أوائل السبعينات افتتح الشاب العشريني مكتبه الخاص في ساحة رياض الصلح في الوسط التجاري في بيروت.

كان بهيج يوقع كتاباته باسم «بهيج» وبعد وفاة والده اعتمد توقيع خطوطه باسم «عنداري».

انخرط في العمل الحزبي في سن باكرة، سائراً على خطى خاله الذي كان من الجيل الرائد في الحزب وأحد أركان الحرب في أميركا اللاتينية.

عام 1971 أصيب بطلقات نارية في رجله وركبته أقعدته بضعة أشهر عندما هاجم عناصر من حزب الكتائب اجتماعاً حزبياً في فرن الشباك كان مشاركاً فيه[1].

حمل مسؤوليات حزبية لسنوات في لبنان وفي بريطانيا التي انتقل إليها عام 1978.

مع توافد الصحافة العربية الى العاصمة البريطانية كانت ريشته تزيّن كبريات الصحف بأسلوب مميز بخطوط النسخ والفارسي والديواني، فقد كانت العناوين الرئيسية وحتى الإعلانات التجارية تكتب بخط اليد وتصور وتطبع. وكان يمضي الساعات الطوال ليلبي حاجات المطبوعات وشركات الإعلان العربية والعالمية التي تتهافت على فنه وتقصده ليصمم لها العلامات التجارية والجداريات الإسلامية وجوازات السفر وأغلفة الكتب وبطاقات الأفراح والمعايدة.

من الصحف التي تعاون معها «الحياة» و«الشرق الأوسط» ومجلات «المجلة»، «سيدتي»، «الوسط»، و«فنون عربية» التي كان يدير تحريرها الشاعر العراقي بلند الحيدري.

في منتصف الثمانينات بدأت سطوة الكمبيوتر على سوق النشر العربية فطوّع بهيج خبرته في الخط العربي ليدخل مجال الكتابة الرقمية وكانت الباكورة الحروف التي صممها ببراعة لجريدة «الحياة» اللندنية والتي ما زالت تتميّز بأناقتها. ويميز حروف بهيج أنه كان يكتب خطوطه بقلم القصب ويرسمها بنفسه على الكمبيوتر فيخرج الحرف الإلكتروني أقرب ما يكون الى الخط المكتوب باليد.

من الصحف التي صمم خطوطها صحيفة «السياسة» الكويتية «القدس العربي» اللندنية وصحيفة «النهار» قبل التحول الى شكلها الحالي وغيرها. ولم يكتف بالخط العربي فصمّم أيضاً حروفاً آرامية لمجلة «آرام» الصادرة عن «مركز آرام لدراسة الحضارات السامية» في جامعة أكسفورد في بريطانيا.

لا تزال خطوط بهيج بعد رحيله تزيّن آلاف أغلفة الكتب والمجلات واللافتات التجارية.

توفي الرفيق بهيج في 2 حزيران عام 2000.

* * *

فهد العنداري
خطاط الجمهورية اللبنانية

لايصح أن نكتب عن الرفيق بهيج العنداري، إلاونذكر بكثير من التنويه والده فهد العنداري الذي كان منحه الرئيس حبيب باشا السعد عام 1934 لقب خطاط الجمهورية اللبنانية[2].

في عددها رقم 575 (أيار 1973) خصصت مجلة «البيدر» غلافها الخارجي وعدداً جيداً من صفحاتها للحديث عن الخطاط «نابغة الخط العربي» كما وصفته «البيدر»، نختار منها المقاطع الآتية:

مولده ونشأته ولمحة مجملة عنه:

ولد فهد قاسم العنداري في بلدة العبادية سنة 1903، ونشأ في بيت جفته المادة، ولكن هذا لم يحل بينه وبين طموحه وما خلقه الله له والموهبة كامنة فيه منذ نشأته تنتظر ساعة بروزها.

تعلم في مدرسة البلدة، وكان مجلّياً في دروسه، خاصة في الرياضيات والرسم والتصوير، فكان يلتقط الرسم بريشته بسرعة مذهلة في مرحلة الطفولة فتكتمل ملامحه بين أنامله بصورة واضحة.

توقف عن الدرس أثناء حرب 1914 – 1918 وتوجه الى جبل الدروز حيث مارس مهنة التدريس في بعض قراه، وعلم بعض التلاميذ الخط.

عاد الى لبنان ففتح مكتباً للخطوط في عاليه سنة 1927، وبعد فترة توجه الى العراق حيث أسس مكتباً في مدينة البصرة عمل فيه لمدة تزيد على سنة، ثم عاد الى لبنان حيث استقر نهائياً وأسس مكتبه في بيروت.

في الثلث الأول من تموز 1938 تزوج مهيبه محمد العنداري ورزقا: عفيف (توفي) ورفيق ونزيه وبهيج، ونجاة ولمياء وشوقي وخالد وهيفاء وبسام.

بتعبه وجهاده المتواصلين ربّى عائلته، وبلغ مركزاً اجتماعياً مرموقاً، ورمم بيته القديم في العبادية، وبنى منزلين كبيرين في ضهور العبادية حيث سكن أحدهما مع أسرته.

صفاته:

الى جانب موهبته الفائقة في الخط وهبه الله ذكاءً حاداً وبصراً دقيقاً وبصيرة مميزة وخفة روح نادرة ونكتة مبهجة وصفاء قلب ووفاء خالصاً ومحبة غامرة.

وفاؤه لأصدقائه مضرب للمثل، إذ لم يفقد واحدة من صداقاته طوال حياته، بل كان كل يوم يكسب واحدة جديدة، وشملت صداقاته الحميمة طبقات المجتمع كلها.

كانت البساطة من أبرز صفاته، فهو لم يعرف التصنع والتكلف ولم يدفعه المركز المرموق الذي بلغه الى الغرور والكبرياء والتعالي، بل بقي ذلك الإنسان المتواضع الطلق المحيا الذي لم يعرف وجهه العبوس ولم يجد الحقد مجالاً له في قلبه.

التواريخ الأبجدية واللوحات الفنية:

بخط فهد العنداري

التواريخ الأبجدية واللوحات الفنية التي خرجت من بين يدي فهد العنداري تعد بالألوف، فمنازل الملوك ورؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات والوزراء والنواب والقضاة وسواهم من مختلف الطبقات مزينة بهذه التواريخ واللوحات التي كانت أثمن هدايا المناسبات لكونها قيّمة وباقية. وكان يتفنن في رسم الإطار المحيط بها وفي خطوطها.

أربعة أبيات على حبة سمسم بخط فهد العنداري

الأوسمة:

الى منحه لقب «خطاط الجمهورية اللبنانية»، منح الفنان فهد العنداري هذين الوسامين:

وسام المعارف من الدرجة الثانية، وورد في المادة الاولى منه: خطاط حاذق قضى الشطر الأكبر من عمره وهو دائب على إتقان هذا الفن فاستحق التقدير.

حمل المرسوم رقم 73 والتاريخ 29 تموز 1952، التواقيع: رئيس الجمهورية بشارة الخوري، رئيس مجلس الوزراء سامي الصلح، وزير التربية الوطنية أنطوان اسطفان.

وسام الاستحقاق اللبناني الفضي:

المرسوم رقم 582 تاريخ 13/03/1954، التواقيع: رئيس الجمهورية كميل شمعون، رئيس مجلس الوزراء عبدالله اليافي، وزير الخارجية والمغتربين ألفرد نقاش.

* * *

وافت المنية الخطاط فهد العنداري عام 1973 فشهدت «العبادية» أحد اضخم مآتم التشييع، ننشرت «البيدر في عددها المشار اليه آنفاً نص الكلمة التي ألقاها كل من رئيس بلدية العبادية الدكتور يوسف سلامة، والأستاذ سليمان أبو نصار، وقصائد للشعراء، الرفيق قاسم نجد[3] الرفيق سليمان العنداري[4] وجميل أبوعز الدين[5].

* * *

خير خلف للخطاط السلف:

في ختام الفصل الخاص برحيل خطاط الجمهورية اللبنانية فهد العنداري أوردت «البيدر» الآتي:

إن الخطاط فهد العنداري اذ يغيب يبقى مستمراً في ولده بهيج الخطاط البارع المبدع المتفنن الذي شهد له والده النابغة بالنبوغ وجودة الخط منذ سنوات طويلة، وهو، المولود سنة 1948، في الخامسة والعشرين من سني حياته، وفي مطلع ربيع الشباب، تسلم الأمانة من والده ويتابع رسالته الفنية بجدارة وأهلية، وقد صقل والده موهبته ودرّبه على أصول الخط وقواعده. وها هو يبعث الحياة في مكتب والده الذي لم تفارقه الحياة، ويلقي على عاتقه مسؤولية العمل والجهاد في المضمار الذي خاض والده غمراته مكللاً بغار النصر، وقد أضفى عليه كل جديد وحديث في مجالات الفن. وعزاؤنا الكبير أن بهيج فهد العنداري يملأ الآن مركز فهد العنداري، وأن خطوطه وروائعه التي كان يوقع عليها باسم بهيج يوقع عليها الان باسم عنداري وهو توقيع والده المشهور. وروح فهد العنداري ستقبل باقتناع ورضى تام بهذا التوقيع الذي انتقل من خير سلف الى خير خلف، فبهيج فهد العنداري الموهوب كأبيه سيحافظ بنبوغه على هذا الإمضاء الذي لطالما تذيلت به روائع الخطوط. وهكذا يصبح بهيج فهد العنداري خليفة فهد العنداري عن جدارة واستحقاق.

* * *

كتب رئيس تحرير «الحياة» جهاد الخازن عن الرفيق بهيج العنداري مرتين، أولى بتاريخ 23/06/2000، قائلاً:

«على نطاق شخصي فقد توفي الزميل بهيج عنداري بعد أن أصيب بمرض نادر جداً في الأعصاب يصيب واحداً في أكثر من مئة ألف. وكان بهيج عنداري خطاطاً، له طموحات صحافية وسياسية، إلا أن التكنولوجيا سبقته في السنوات الأخيرة، فلم تعد الصحف تستعمل خطاطاً مقيماً، وإنما أصبح الكمبيوتر يقوم بالمهمة، وكلفته رسم خط «الحياة» هذا، فأنجز العمل في فترة قياسية، وأصبحت صحف عربية كثيرة تستعمل الخط الذي أبدعه بهيج عنداري وحسّنه، حتى أصبح الخط الأكثر شيوعاً في الصحافة العربية.

عدت من سفر فقال لي أصدقاء مشتركون إن بهيج عنداري راح ضحية مرض لا يصيب إلا نادراً جداً أو ما يعادل ندرة بهيج كخطاط وإنسان، رحمه الله «.

ثم بتاريخ 12/03/2013:

« الحرف الذي استعملناه رسمه خطاط جريدتنا (الراحل) بهيج عنداري، والصحف العربية التي تبعت «الحياة» في الطباعة الإلكترونية استعملت خط بهيج، فكان هذا إرثه للصحافة العربية ».

* * *

هوامش:

1) شارك فيه عدد من الرفقاء، منهم الرفيق جوزف رزق (من عيتنيت، ومقيم حالياً في كليفلند) الذي أصيب في قدمه، ما أوجب نقله الى المستشفى لمدة غير قصيرة.

2) وجه رئيس الجمهورية اللبنانية حبيب باشا السعد، بتاريخ 23 أيار 1934 الرسالة الآتية:

« حضرة الخطاط البارع الأستاذ فهد العنداري المحترم

اطلعت على عريضتك ووقفت على خطك الجميل فرأيت أن أجيز تلقيبك «بخطاط الجمهورية اللبنانية» اعترافاً بحذقك وبراعتك وتشجيعاً لك في سبيل الإتقان والإجادة، وفقك الله ».

3) شاعر معروف. من مؤسّسي العمل الحزبي في «العبادية»، سنكتب عنه لاحقاً.

4) شاعر معروف أيضاً. سنكتب عنه وعن شقيقه الرفيق الشاعر أمين العنداري الذي كان مهاجراً في التيغري– فنزويلا، ومسؤولاً حزبياً فيها.

5) من العبادية أيضاً. وكان شاعراً شعبياً معروفاً.

*رئيس لجنة تاريخ الحزب

الخبر الثقافي

خوان ميرو الكاتالونيّ عاشق الطبيعة وفضاء الطفولة السرمديّ

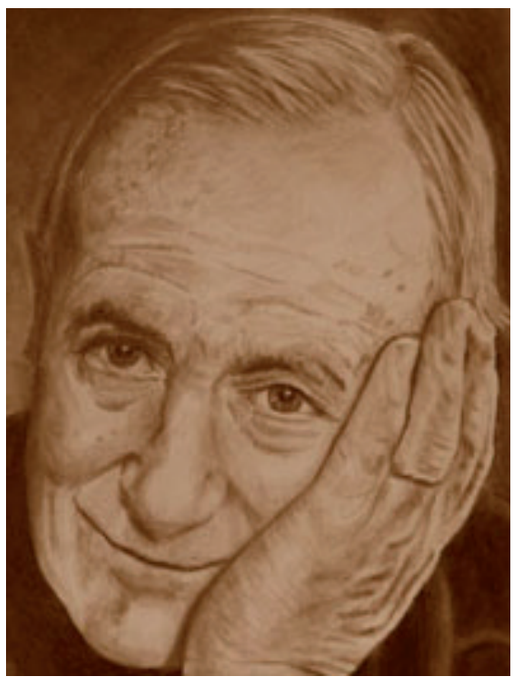

لخوان ميرو (1893–1983) موقع مهمّ في تاريخ الفن المعاصر، إذ كان في أعماله ميل إلى اللاوعي والروح الطفلية والتعلق بكاتالونيا مسقط رأسه. تأثر في بداياته بالحركات السائدة في زمنه مثل التوحشية والتكعيبية والانطباعية، قبل أن يطوّر تجربته نحو رسم مسطح يحمل بصمته الخاصة.

لم يرغب ميرو في الدراسات التجارية التي غصبه عليها أبواه، لذا سرعان ما انقطع عنها والتحق بمدرسة الفنون الجميلة في برشلونة. اكتشف جمال الطبيعة في قرية عائلية في منتزواغ ديل كامب كان زارها للمرة الأولى عام 1911 طلباً للنقاهة، بعد إصابته بمرض السلّ، وشعر عندئذ بأنه سيكون رساماً خلافاً لرغبة أبويه.

تلك الحرية في تّحديد مصيرٍ بنفسه طبعت مسيرة التقى خلالها كبار فناني عصره، إذ ظل محافظاً على استقلاليته حتى عندما انخرط في المغامرة السوريالية.

تناول ميرو ثيمات كثيرة منذ مشهدياته الأولى في العقد الثاني من القرن الماضي، إلى أعماله المتأخرة التي يتجلى فيها الحلم وتسكنها العلامات والرموز، لكنه كان أكثر ميلاً إلى الطبيعة والمرأة وسرمدية الفضاء. وحتى مطلع العشرينات، كانت لوحاته تصويرية شديدة التأثر بفناني عصره مثل بول غوغان وفنسنت فان غوغ وهنري ماتيس وبول سيزان. غير أن انطلاقته الفعلية كانت عقب لقائه بفرنسيس بيكابيا الذي أطلعه على بحوث مجموعة دادا، وتلك الحركة تقوم فلسفتها على إزاحة كل عقد أو إرغام ذي صبغة أيديولوجية أو سياسية أو جمالية، وزوده نصائح لأجل «تجاوز الفعل التشكيلي لبلوغ الشعر».

لدى انتقاله إلى باريس عام 919، تعرف ميرو إلى أندريه ماسون وماكس جاكوب وأنطونان أرتو وميشال ليريسثم وإيف تانغي وجاك بريفير، وكلهم من الشخصيات الفنية والأدبية القوية ذات الخيال الخصب التي ستفتح أمامه أبواب الحلم على مصراعيه.

وشيئاً فشيئاً مضى يخط طريقه ويعمّق مجراه بأسلوب خاص بدأه بلوحة «القرية» عام 1921 التي باعها لكاتب أميركي شاب لم يعرف بعدُ المجد والشهرة هو إرنست همنغواي، وتميّزت بالاعتناء بالتفاصيل سواء في رسم الأشجار أو الحيوانات أو الأشياء، ما اعتبره النقاد قاعدة لأعماله اللاحقة. التي تعكس تعلقه بالأرض الكاتالونية التي شهدت طفولته وانبهاره بالطبيعة حتى موته.

في تلك الفترة مر ميرو في أزمة هوية في التعبير. كان يريد إعادة صوغ الواقع والتخلص من التصويرية ليدخل مرحلة تبسيط الخط والأشكال في خضم الأعمال التي تستدعي التفكيك والتأويل. وكانت عفويته المطلقة ذروة ما بلغته السوريالية وبصمته الخاصة في الوقت نفسه. وتجلى ذلك في «كرنفال أرلوكان» التي قدمت عام 1925 في معرض جماعي شارك فيه بيكاسو وبول كلي وماكس إرنست ودي شيريكو ومان راي ومثلت بداية الاعتراف بفنه. وفي الأعوام اللاحقة تطورت الكيفية التي تمثل بها العالم الحميم والسمو به، ويتجلى ذلك في تبسيطه ذاك العالم وتركيبه الأشكال إلى الحدّ الأقصى الذي يمكن أن تبلغه، لخلق توليفات محمّلة برموز تقارب التجريد من دون أن تنخرط فيه. ولا شك في أن لقاءه بفناني الحركة السوريالية وتوقيعه بيانها كان لهما دور في هذا التطور.

في تلك المرحلة، أطلق ميرو العنان للأحلام والرؤى والتخيّلات والهلوسات، يرسمها على الورق أو القماشة وفق تصوّره الفني الجديد، إذ صار الوجه مجرّد خطوط، والأجسام أضحت أطيافاً تتموّج في الفضاء. وأنجز أعمالاً بدا فيها كأنه يلهو بالفضاء واللون، مصرّاً على تدمير شروط الفن التقليدية. لوحات زال فيها الرسم المنظوري، وتراقصت الأشكال وتكسرت وتمطت، مثلما ذابت أوهام الواقع في ابتكارات خطوطية متناسقة حيناً ومتنافرة حيناً آخر. أي أنه أضاف إلى حرية الفكر حرية جمالية.

لا يعني ذلك أن ميرو كان بعيداً عمّا يجري في عصره، منعزلاً في محترفه ولا يشغل فكره غير المسائل الفنية. على العكس كان يتابع حوادث العالم بعين فطنة ويعبر عن موقفه بشجاعة، كما لدى اندلاع الحرب الأهلية في بلده إسبانيا حيث أنجز عام 1937 لافتة لمساندة الجمهوريين ضدّ قوات فرانكو عنوانها «ساعدوا إسبانيا» استعملت كطابع بريدي. وعرض لوحة «الحاصد» في جناح بلاده في المعرض العالمي الذي أقيم في العام نفسه في باريس، إلى جانب «غرنيكا» لبيكاسو، أو أثناء الحرب العالمية.

في نهاية الثلاثينات، احتلّ الفضاء بعمقه وغموضه وألغازه حيزاً جديداً في أعمال ميرو، إثر لقائه جورج براك وألكسندر كالدر في فرنشفيل سور مير التي لجأ إليها بعض الفنانين هرباً من الحرب. هناك كان ميرو يمضي أوقاته متأملاً القبة الكحلية ونجومها. ولم يمض وقت طويل حتى أنجز سلسلة سماها «كوكبة نجوم» استهلها عام 1939 وضمت ثلاثاً وعشرين لوحة كانت بمثابة «رؤى كونية»، وهي رسوم خرائطية لسماء خيالية ترصع صفحتها النجوم والمجرات والأقمار.